

تخبط الهوية وهشاشة العلاقة في الرواية التاريخية الجزائرية المعاصرة،

كافيريش ورعاة أركاديا- نماذج

**The confusion of identity and the fragility of the
relationship in the contemporary Algerian historical
novel, Kaferish and the Shepherds of Arcadia -
examples**

سارة أوراغي .

Sara ouraghi

sarah.ouraghi1@gmail.com

university of Tizi-Ouzou

حمادي وهيبة .

Wahiba hamadi

wahibahamadi@gmail.com

university of Tizi-Ouzou

الملخص:

تعد ثنائية الأنا والآخر من بين الثنائيات التي استرعت اهتمام الباحثين والدارسين على اختلاف توجهاتهم، لما تقتضيه من آليات الفهم والتدقيق والتحليل والتأويل، الموافقة لأشكال التوافق والاختلاف والحوار والتبادل والتواصل التي يتمظهر عليها طرفاها، ولقد أولى الإبداع الأدبي بدوره، وبالأخص الرواية التاريخية التي تراكم حديثها عن الوطن، والذات والغيرية، عناية بالغة للمسألة، وشكلت أفق اهتمام كبير في متونها، عكس أدبيا وفكريا جملة الصراعات والتناقضات الراسخة والمترسبة في كلا جانبي العلاقة التي تظهر حيناً صلبة وأحياناً كثيرة هشة.

وتبعاً لذلك، تعنى هذه المداخلة بالبحث في أشكال العلاقة بين الأنا والهو ومعاينة تمظهراتها، وكذا خطاب الهوية المحقق من خلال نموذجين روائيين لمحمد فتيلينة: "كافريش ورعاة أركاديا".

الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخية، الذات، الغيرية، العلاقة، الهوية...

Summry:

The duality of the ego and the other is among the ideals that drew the attention of researchers and scholars of different orientations, as it requires understanding, scrutiny, deception, in agreement with the forms of compatibility, difference, dialogue, exchange and communication that appear on both sides of it. Literary creativity in turn, especially the historical novel that accumulated its talk about the motherland, and the self and the other, and formed a great interest in its text, reflecting, literary and intellectually the set of conflicts and contradictions, and sedimented in both aspects of the relationship that appears sometimes solid and many other times fragil.

Accordingly, this intervention is concerned with researching the forms of the other relationship between the ego and the other and examining its theorems, and we were the discourse of identity achieved through two models novel of muhammad ftalina: "kavirich and ruate arekadiya

Keywords : historical novel- The duality- the ego- the other- relationship- identity.

مقدمة:

تمثل الهوية المرتكز الفعلي للحضور الاجتماعي، والمنطلق لكل تصور مستقبلي للجماعة، والمرجع الأول المحرك للذات، سواء في صيغتها الفردية أو الجماعية بوصفها خصوصية مجتمعية متفردة تتشكل من عناصر ثقافية ومعتقدية متنوعة تعزز قوة الشعور بالانتماء. ولما كانت هذه هي ميزة الهوية فإنها دائما ما كانت تعتبر أكثر جزء مستهدف في مختلف الصراعات والحروب عبر التاريخ، ولأن الطرف الذي يستأثر على الهوية يكسب الصراع.

وعليه فقد عدت مسألة الهوية من أكثر القضايا التي نالت اهتمام الكثير من الدارسين والمفكرين والنقاد، وكانت ومازالت الشغل الشاغل لمعظم الأدباء والروائيين العرب عامة والجزئيين خاصة الذين شكلت لديهم خصوصية أساسية في الكتابة وجوهر الموضوع وبؤرة الصراع الداخلي لأعمالهم الروائية، فنجدهم قد اشتغلوا على مختلف الآليات المنهجية والإبداعية لحفظ الهوية ومعالجتها من خلال تتبع مختلف مراحل التصدع التي تعرضت لها، واجتهدوا كثيرا في الارتقاء بنمط الكتابة وأشكالها، وتطبيب هشاشة العلاقة الحاصلة على

مستوى الهوية في مقابل الغيرية، متجاوزين بذلك حدود الواقع إلى المتخيل.

وبناء على ما تقدم، جاءت هذه الورقة البحثية للكشف عن مختلف تجليات الهوية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر، متخذة من المشروع الروائي للكاتب الجزائري "محمد فتيلينة" ممثلاً في مسرديتيه "كافريش" و"رعاة أركاديا" هدفاً لها للبحث في أشكال الهوية وعلاقتها بالآخر، ومعاينة تمظهراتها بالتركيز على هشاشة العلاقة وتخبّطها في خضم الصراع مع المؤثرات الداخلية والخارجية للآخر المختلف.

1- بين الهوية والغيرية:

1-1- في مفهوم الهوية:

إنه ومن المعلوم أن لفظة "هوية" من أصل لاتيني (**Idem**)، وأنتج هذا الأصل الصفة النعتية (**Identicus**) التي تشير إلى الشبيه والمماثل، وتعارض ما هو مختلف، فالهوية (**Identite**،) (**Identity**) حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره¹، فمبدأ الهوية

يقوم على ما (هو هو) وما (ليس هو ليس هو)، أما مصطلح الهوية في حد ذاته لا يمت بصلة إلى جوهر اللغة العربية، فهو طارئ عليها ومن منظومة أخرى²، وإذا نظرنا في مفهوم الهوية بإعتبار المفاهيم مفاتيح للعلوم، سنصادف لا محال تباينا في التعاريف المقدمة من طرف الباحثين والمهتمين على اختلاف مجال كل منهم، ففي علم الاجتماع على سبيل المثال يمكن مقارنته من عدة جوانب وزوايا، فالهوية بشكل عام تتعلق بفهم الناس وتصورهم عن أنفسهم ولما يعتقدون أنه مهم في حياتهم، ويتشكل هذا الفهم انطلاقا من خصائص محددة تتخذ مرتبة الأولوية على غيرها من مصادر المعنى والدلالة، ومن مصادر الهوية هذه: الجنوسة والجنسية والمنطلقات الإثنية والطبقة الاجتماعية...، وتحدد الذاتية الاجتماعية من خلال فاعليتها داخل البناء الاجتماعي الإقتصادي الذي تتواجد فيه، بحيث تؤثر الشخصية الاجتماعية في البناء الاجتماعي، فيمكن أن تكون قوة لائحة تساعد على استقرار البنية الاجتماعية³، وبالتالي فالفرد لا يستطيع أن يستقل عن الجماعة، فهو بأود الحاجة إلى هوية مشتركة تجمع معه مع الآخرين، لأنه ليس بإمكانه أن تكون له هوية وحده، فهو

يعرف نفسه من خلال حدود تضعه داخل جماعة معينة، ومنه كل ما هو خارج عن حدود هذه الجماعة والذي يعد بالنسبة لها الـ (نحن) فالضرورة سيكون بالنسبة للفرد منها الـ (أنا).

بينما يتعالق مفهوم الهوية في علم النفس بوحدة ذات الطفل، أو الشاب أو الرجل أو الشيخ على اختلاف العمر والدور الذي يقوم به، وقد يكون أول من أشار في البعد النفسي للهوية في العصر الحديث الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" (1632-1704م) حينما قال: "إن (الذات) أو (الهو) (**Le Soi** أو **Self**) هو ذلك الشيء (**La chose**) الفكر الواعي (كائنا ما كانت الصورة التي يتجلى فيها: روحية أو مادية بسيطة أو مركبة، لا يهم) الحساس نحو المتع والألم أو الواعي بها، الخلق بالسعادة أو الشقاء الذي يكون اهتمامه فيه، والحال هذه، منصبا على ذاته. وهو ما يجعل من وعي ذلك (الشيء الواعي) يلتقي مع ذاته، وليس مع غير ذاته، ليشكل شخصا واحدا، وذاتا واحدة. وعلى هذا النحو تسند كل أفعال ذلك الشيء لذاته وتصير ملكه باعتبارها أفعاله بالقدر الذي يمتد ذلك الوعي، لا أبعد منه"⁴، فوعي الفرد هو ما يحدد هويته، وهذا ما

تذهب إليه الميتافيزيقيا بدورها، إذ أنها تقتزن الهوية بالعقل، بدليل أن "شلينغ" قد جعل من الهوية المطلقة جوهر العقل⁵، فهما بمثابة الوجه الواحد للعملة النقدية الواحدة، إذا غاب أحدهما غاب الثاني تلقائيا.

فيما أنه حظي موضوع الهوية أيضا في ميدان الفلسفة بباع طويل حد ظهور ما يعرف بفلسفة الهوية، كمصطلح يشار به لوحدة الطبيعة والفكر، ووحدة المثل الأعلى والواقع، وكل فلسفة لا توجد فرقا بين المادة والروح، ولا بين الذات والموضوع فهي مجال جامع لهذه الثنائيات في وحدة ليست تنفصل، وتضيفها على ذلك أنها ترجعها للمنطق وتسندها له⁶، ويعد أرسطو واضع أسس علم المنطق، وأول من فصل في مسألة الهوية حيث رد قوانين الفكر الأساسية إلى قانون واحد "قانون الهوية".

وقد قدمت موسوعة الفلسفة تعريفا متقاربا مع التعاريف السابق ذكرها، فتشرح الهوية بمقولة: "تعبّر عن تساوي وتماثل موضوع أو ظاهرة ما مع ذاتها (...). ويتطلب تعيين هوية الأشياء أن يكون قد تم تمييزها مسبقا، ومن ناحية أخرى، فإن الموضوعات المختلفة غالبا ما

تحتاج إلى تحديد هويتها بهدف تصنيفها وهذا يعني أن الهوية ترتبط ارتباطاً لا يمكن فصله بالتمييز (بين الأشياء)⁷.

يبدو جلياً من خلال المعاني الواردة سابقة الذكر، أن الهوية مفهوم يجتمع تحت لوائه كل مفاهيم التشابك، والتداخل، والتعارض، والتناقض، والتناوب، والإفتاح، سويًا.

1-2- في مفهوم الغيرية:

يحمل الآخر (الغير) دلالات عديدة تتقارب فيما بينها من جهة وتختلف من جوانب أخرى، إذ أن "لفظ (الغير) في علم النفس مقابل للفظ "أنا"، فكل ما كان موجوداً خارج الذات المدركة أو مستقلاً عنها كان غيرها، ونحن نطلق على الشيء الموجود خارج الأنا اسم اللا أنا أو الآخر، فالأنا إذا هي الذات المفكرة، والموضوع الخارجي هو الآخر"⁸، فكل ما هو خارج عن الأنا يمثل الآخر، إلا أن حضور الذات بالنسبة للآخر حضور دائم في جميع مراحل الحياة، لكن قد تتغير خصائصه بتغير الظروف والمواقع، وتبقى الأنا (الذات) أول عامل يساهم ويؤثر في تنوع الآخر، وعموماً قد تختلف هوية (الغير) باختلاف المظور الذي تنظر منه (الأنا).

فليس بالضرورة أن يكون الآخر هو "البعيد جغرافيا أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها، أو يحارب بعضها البعض الآخر"⁹، ولا يستبعد كذلك أن لا يكون الآخر (الغير) منفصل عن الأنا، بل أن ينطبق على الآخر، حيث تتعكس الأدوار بين الأنا والآخر، فيصبح الآخر هو الأنا، والأنا هو الآخر، والأکید أنه لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر.

كما يمكن أن يكون الآخر فردا أو جماعة في خضم العلاقة بين الأنا وما يقابلها الشائيتين التاليتين (أنا- آخر "اللا أنا") و (أنا "نحن"- الآخر)، فيكون الآخر في الأولى فردا، ويكون في الثانية جماعة، ذلك أن الآخر "اللا أنا" يتكون من "أشياء طبيعية وأشخاص يدعون "أنت"، أضف إلى ذلك أن هناك تميزا بين (أنت) حميمة (تنادي باسم الأول)، وآخرين بعيدين (ينادون باللقب أو بالاسم الكامل، وفي النهاية فإن أنا وأنت الحميمة تشكلان (نحن)، بينما يشكل (هم) من حاصل (أنت) الغريب، وهكذا فإن من الواضح أن

الآخر هو بعيد عام، يغطي الحالات التي يعترف فيها بالاختلافات اللغوية، والثقافية الأخرى والتي تشكل الأساس لهوية (نحن)¹⁰.

2- تعالي الآخر الفرنسي في رواية كافي ريش:

تناولت رواية كافي ريش قصة لشخصية فرنسية من أصول يهودية تدعى غزلان ريفيرا، تعود إلى الجزائر بعد ستون سنة اثر دعوة تلقتها لحضور إحتفال مقهى كافي ريش بمرور خمسين عام على تجديده بوهران لتقرر أن تكتب عن فضاة ما عاشته.

تدور أحداث الرواية في وهران خصوصا في مقهى كافي ريش الذي يتواجد بين أكبر حيين في وهران حي الزنوج والمدينة الأوروبية، تقودنا إلى مرحلة حساسة من تاريخ الجزائر سنة 1962 وترصد الجرائم التي قامت بها المنظمة السرية، والذي كان فيها طاسو غريغوريوس عضوا بارزا.

رواية كافي ريش عادت إلى التاريخ وحفرت في مضمراته من أجل إظهار صورة الآخر، حيث نجد الروائي محمد فتيلينة يستدعي الآخر إلى الحضور للجزائر من أجل البوح بجرائمه وهذه تيمة جديدة في

الرواية الجزائرية المعاصرة التي تدفع الآخر للبلوغ بلسانه على الأرض التي ارتكب فيها أبشع الجرائم ومارس على شعبها كل أنواع الكسر. فجسدت شخصيات رواية كافي ريش علاقات متعددة بين الأنا والآخر، ومن بين الشخصيات المجسدة للأنا الجزائرية الشاعرة "شيماء بن عبد الله"، وشخصيات "العربي"، و"الهزي"، و"بلقاسم الشيوعي"، وشخصية "نادية" التي تعمل نادلة في مقهى كافي ريش، و"الجنة فطيمة"، ونجمة.

في المقابل نجد الآخر الفرنسي متمثلاً في شخصية "غزلان ريفيرا" وهي فتاة فرنسية من أصول يهودية صديقة شيماء الجزائرية التي تغتال على يد الفرنسيين، بالإضافة إلى شخصيات فرنسية أخرى منها: "طاسو غريغوريوس"، و"جون طاسو" و"ازايل طاسو"، والصحفي "جيرار"، والخالدة "نيكول"، والأب "فليب"، و"عبد الحي طاسو" ابن نجمة وطاسو.

تظهر الرواية الآخر الفرنسي في مواقف متأرجحة ومتذبذبة اتجاه الأنا الجزائرية بين مشاعر الحب المزيف اتجاهه مقابل جعله بلا هوية وذلك بإيمانه بكون الجزائر فرنسية، وتظهر مواقفه المتناقضة جلية في هذه الرواية من خلال علاقة غزلان ريفيرا بصديقتها شيماء التي اغتالها طاسو وعلاقة طاسو بنجمة، كما يذهب الآخر الفرنسي إلى التناكر للهوية الجزائرية واعتبار الجزائر وفرنسا كيان واحد، ويتضح ذلك من خلال شخصية طاسو الذي صار من أجل البقاء في الجزائر، وقتل كل الشخصيات التي رفضت المشروع الاستعماري ونادت باستقلال الجزائر، يعتبر وطن الأنا الجزائرية فرنسي، مما جعله يتعلق به ويصارع من أجل البقاء فيه بإتباع آليات كثيرة للقضاء على الهوية الجزائرية، والرواية حافلة بمقاطع لهذه الشخصية التي تؤكد في هذا المقطع السردى عدم اعترافها بالجزائر الجزائرية إنما بالجزائر الفرنسية: "أنا أو العدم فرنسا أو اللاشيء! لا جزائر بدون طاسو"¹¹، وكذلك في قوله: "الجزائر فرنسية، الجزائر فرنسية الجزائر فرنسية"¹².

كما حاول الآخر التقليل من شأن الجزائريين باستعمال العنف اللفظي "الذي يهدف إلى التعدي على حقوق الآخرين بإيذائهم عن

طريق الكلام والألفاظ الغليظة وعادة ما يسبق العنف اللفظي بالعنف
 الفعلي الجسدي"¹³، فالآخر الفرنسي أطلق ألفاظ تسيء للأنا
 الجزائرية وتنقص من قيمتها، وتجردها من إنسانيتها منها:
 "الأعداء"¹⁴، "الهمج"¹⁵، "الزاحفين من الصحاري البعيدة"¹⁶
 "المتمردين"، "عيون مرتزقة"¹⁷، كما نجد صورا أخرى متعددة تظهر
 النظرة السلبية والاحتقارية للفرنسي اتجاه الجزائري وذلك يتبين من
 خلال محاولة جون طاسو إقناع عزلان رفيرا أنه لا وجود للصدقة بين
 الجزائري المسلم والفرنسي بقوله: "ليس هناك صداقة بين الفرنسي
 والمسلم... أتفهمين لن تكون هذه البلاد إلا فرنسية"¹⁸، فالآخر
 الفرنسي أقنع نفسه بأن الجزائر ستبقى إلى النهاية فرنسية وأنها لن
 ترتدي إلا الهوية الفرنسية هذا الموقف الذي نلمحه عند أغلبية
 الشخصيات الفرنسية في الرواية، حيث نجد شخصية جرار الصحفي
 الفرنسي يظل يقنع نفسه بقوله: "الجزائر بلد لأولئك الذين قدموا من
 وراء البحار بمهويات أوروبية ذابت في أحياء واسعة في المدن الكبيرة
 كما هو الحال في الحي الأوروبي"¹⁹.

وبذلك فموقف الآخر الفرنسي اتجاه الأنا الجزائرية قائم على عدم الاعتراف بالدولة الجزائرية ومحاولته طمس الهوية الجزائرية وادعائه الحب المزيّف للوصول إلى تحقيق هدفه وذلك ما شهدناه من خلال استغلال طاسو الفرنسي لنجمة الجزائرية وهذا ما يوضحه هذا المقطع: "لم يدر في خلد من عرف طاسو أنه سيهتدي إلى تغيير اسم نجمة كي يسهل إخراجها من الجزائر... أمدّها بوّثائق ثبوتية وبعنوان في فرنسا أشبه ببيت الذئبة"²⁰، وفي مقطع آخر "تصل نجمة إلى باريس باسم مستعار ووثائق مزورة بلباسها الإفرنجي"²¹، لنجد أن الآخر الفرنسي المتمثل في شخصية طاسو قد حاول القضاء على الهوية الجزائرية من خلال استغلال نجمة الجزائرية بدافع الحب، وجعلها تنجب منه ولدا تركه في الجزائر رغبة منه أن تبقى بذرة فرنسا في الجزائر، ويتضح هذا من خلال قوله لأب فليب: "جاء أجدادي وأجدادك إلى هنا من أجل نداء الكنيسة فهل يعتقد أحد أن الأحفاد يا أبتى مستعدون للشرب من نفس الإناء مع العرب"²²، وفي مقطع آخر يخاطب ابنه عندما ولد: "ستعيش على هذه الأرض التي لن تكون إلا فرنسية"²³.

أفقد طاسو نجمة هويته من خلال إبعادها عن أرضها التي تشكل الإطار الهوياتي لها وجعلها تشبه الفرنسيات وتركها لبيوت الدعارة في فرنسا التي نادت بالجزائر الفرنسية، واستهدفت المقومات الشخصية للشعب الجزائري ورغبت في القضاء على هويته. نتج من علاقة الجزائر بفرنسا أولاد بيوت الدعارة الذين أصبحوا ضحايا هذه العلاقة الهشة العابرة إذ انعكس ذلك على حياتهم لأنهم يعانون انفصام الهوية وتخطيها، علاقة خلفت الشعور بالاغتراب والألم والمعاناة كما خلفت أسلحة بشرية دون هوية أصبحت فيما بعد العدو الأول للجزائريين.

نقلت الرواية ثمرة علاقة الجزائريين والفرنسيين من خلال شخصيتين تمثلتا في جون طاسو ابن لازايل طاسو وشاب جزائري، جون الذي جعله خاله ابنا له، الذي أصبح عندما كبر جلاّد للجزائريين وسار على نهج طاسو في كرهه لهم والتعالي عليهم، إذ مكث في الجزائر بعد الاستقلال وغير اسمه إلى وفيق بندين وكان يعطي الأوامر لجنود البلاد لإعدام أبناء البلد سنة 1994، فهو "واحد من الذين تعاونت معهم جماعة وجدة ونظام بومدين في سبيل

توطيد أركان حكم العسكر لإسكات أبناء الجبهة"²⁴، وكان قائدا لفرع مخابرات الجهة الغربية، رمى بالكثير من رؤوس أبناء وطنه، ومشاركا رئيسا في مجزرة وهران. وكل ذلك يرجع لما كان يعانيه من اغتراب النفس لكونه بلا هوية حيث نلمس هذا الاغتراب في قوله: "كنت الوحيد الذي لا ينتمي إلى أي هوية كنت ابن الكنيسة وراعيها ثم انضمت إلى المدرسة وها أنا أقف لا أنا من الجزائريين ولا أنا من الأوروبيين"²⁵

وعبد الحي هو الآخر كان يزيد ألمه من الواقع الذي جعله يصاب بانفصام الهوية، خاصة عندما يشاهد نظرات الآخرين وهذا ما يوضحه هذا المقطع السردى: "تطاردي عيون الكثير من أبناء مدينة الزوج لا تعرف بم تناديني بالنادل على طريقة فرنسي المدينة الأوروبية، أم عبد الحي مجهول النسب"²⁶، ذلك أن كل من جون طاسو وعبد الحي طاسو أبناء "بيت الذئبة" – "وكر الدعارة"، التي عملت فرنسا على نشرها كمراكز من أجل هدم معالم الهوية الجزائرية ومن أجل إغراء الجزائريين، وهذا ما يبينه قول أحد الضباط الفرنسيين "نابليون هو من ورث فرنسا أوكار الذئبات فعلا لأنه يدرك بأن

جرائها ستحمل هوية ما، لن تكون بالتأكيد فرنسية"²⁷، ففرنسا لم تعترف بعبد الحّي ويظهر ذلك من خلال قوله لغزال ريفرا: "فرنسا لم تعتبرني مواطنا مثلما تعتبرني الجزائر كما أن وهران هي وطن لمن لا وطن له"²⁸. لكن وبعد ستون سنة من عيشه في وهران يقرر عبد الحّي الرحيل إلى فرنسا والعيش مع أمه ومغادرة الجزائر التي كانت وستظل حلم الفرنسيين.

فلاحظ من خلال الرواية أن علاقة الآخر الفرنسي بالأنا الجزائرية علاقة قائمة على ولإقصاء والصراع والتنافي والاستعلاء، بعدم الاعتراف بالهوية الجزائرية، وكانت ومازالت علاقة مستعمر بمستعمر "مغتصب سلب الأرض واستعبد الإنسان ومارس جميع الوسائط للضغط على الناس وحملهم على القبول بالأمر والعيش تحت نير الاستعمار"²⁹، فيما تبقى الجزائر بالنسبة للآخر الفرنسي "فردوس الجنرالات المفقود"³⁰، الذي سعى جاهدا لترك رماده فيها وهو الأمر الذي لاحظناه من خلال الثمرات التي تركها أثناء رحيله لتواصل ما تركه ناقصا، ولقد صدق فرانز فانون عندما صرح بحقيقة دامغة حين قال: "الاستعمار قد يخرج من الباب ليعود من النافذة"³¹.

خلاصة القول مما سبق أن الآخر الفرنسي احتقر الذات الجزائرية ومارس عليها أبشع أنواع التعذيب وحاول بكل أسلحته إلغاء هويته، ورواية كافي ريش أظهرت العلاقة الصدامية بين الأنا الجزائرية والآخر الفرنسي الذي نتج عنها بذرة فاسدة خلفت أثارا وندوبا لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

3- انفصام الهوية وتخطط العلاقة بين الأنا والآخر في رواية رعاة أركاديا:

تجسد رواية "رعاة أركاديا"، نهايات الاستعمار الفرنسي للجزائر، بالتركيز خاصة على مدينتي "المدية" و"حاسي مجبج"، وبالاستعانة بشخصيتين محوريتين تمثلتا في "أوجي فرو" و"أركاديا بيشار"، اللذين كانا مدرسين وزميلين في نفس المدرسة بمدينة المدية، وجاءت هذه الرواية متقاطعة مع الرواية السابقة "كافي ريش" إلى حد كبير، ومكملة للمشهد الروائي لكن من زوايا أخرى، وكأن الكاتب أراد من خلال "رعاة أركاديا" أن ينهي "كافي ريش"، فتحدث عن فترة الاستعمار الفرنسي، تلك المرحلة التاريخية التي عاشتها الجزائر، والتي بقدر ما ضمت أوجاعا وومآسي وخرابا ودمارا، بقدر ما خلفت آثارا أطلال

رسمتها تفاصيل حب مستحيل في زمن ثورة التحرير، بين جزائريين ومستوطنين. وكان قد استوحى الكاتب لوحة غلاف روايته من أعمال الرسام "نيكولا بوسان"، أين جعل من المرأة الظاهرة على الغلاف رمزا للشخصية البطلة في النص "أركاديا بيشار" التي أحبها بطل روايته "أوجي فرو".

ترسم رواية رعاة أركاديا مواقف متباينة بين الرفض والقبول، فتظهر الأنا تارة مقبلة على الآخر وتارة أخرى مدبرة عنه، وبين هذا وذاك نجد فتيلينة قد وقف عند كلا الطرفين وعلاقة بعضهم ببعض، فاستحضر الآخر الفرنسي في الصورة النمطية التي دائما ما تتجلى في منطق القوة ومنطق العنف، والاستعمار والظلم والسيطرة على أرض الجزائر وشعبها واستلاب هويتها من جهة، ومن جهة أخرى الأنا الجزائرية الراضة لهذا الآخر العدواني والمتمردة عليه، والمعتزضة على بشاعته وعدوانيته فهو بالنسبة لها يمثل "رمز التعدي والهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية"³²، فالاحتل المعتدي دائما ما يبيع لنفسه كل الأساليب التي تمكنه من بلوغ أهدافه، وهو ما جعل مصطفى لقرع الشيوعي السياسي يصف فرنسا بتلك الأنثى اللعوب

التي تمارس كل سبل الإغواء والإغراء للإطاحة بفرسيتها، فيقول: "فرنسا كتلك الفتاة الجميلة تغرينا بالحياة وتأخذنا إلى حفتنا"³³، فلم يكن مصطفى يضيع أبسط فرصة ليكشف عن حقه الدفين في نفسه تجاه الفرنسيين عامة وقاداتهم خاصة، اللذين يعتبرهم برابرة ومتوحشين، ومجرمين في حق الجزائريين، يتظاهرون بالتحضر وينسبون لأنفسهم مختلف شعارات المحبة والسلام، بينما في الحقيقة هم يتفنون في قهر وتعذيب الشعب الجزائري وطمس هويته ووطنيته بمختلف الطرق، إذ جعلوا القهر والعنف والإبادة بمثابة الوسائل الوحيدة الكفيلة للقضاء على مقاومة الشعب الجزائري وإضعاف قوته القتالية والنضالية"³⁴.

لكن ورغم هذا الإحساس المتنامي بالذات والهوية الذي يبرز عند مصطفى إلا أنه لا يخفي إعجابه بالآخر الفرنسي وبالأخص حبه الكبير لريموند بيشار وشغفه بها، يقول أوجي فرو: "تشبثت أصابع مصطفى بالجريدة بقوة، كان مصرا على إعادة قراءة كلمات المقال، وفي كل مرة يبرز صوته خفيضا مؤثرا، بدا لي كأنه يبعث كلماته من أعماق عينيه لا من خلال شفثيه ! قرأ على مسمعي ما تبقى من

تفاصيل مقتل رموند بيشار، وليع أن تلك الكلمات حينما تلفظ من شفتين كشفتيه، ستترك بالغ التأثير على مدرس مثلي. بعدما أخذ الرجل نفسا عميقا، أردف: شعرت أنها بين يديّ فعلا!"³⁵، لم يقابل مصطفى رموند ولو مرة واحدة في حياته ومع ذلك فقد أحبها وتعلق بها مما كان يقرأه ويسمعه عنها، وكانت لا تفارق أحلامه ثانية، والمرأة الوحيدة التي اعترف أنها تقاسمه النضال وحب الحياة، هذا المناضل السياسي الذي لم يكن يؤمن إلا بالواقع وبما تلمسه يده، يقول مصطفى في مقتل رموند: "أحسست ليلة مقتلها- بأن شيئا ما نزع مني، كان قلبي منقبضا ! لم أعرف السبب! عندما تواترت نشرات الأخبار حاملة نبأ مقتلها في أعالي طافراطس، شعرت بأن جزءا مني قد اغتيل"³⁶، فرغم تخطيط العلاقة بين الأنا الجزائرية والهو الفرنسي إلا أن ذلك الإنفصام الهوياتي الذي تصارعه شخوص الرواية بين رفض الآخر وتقبله والإقبال عليه لا يخفى على القارئ، وكأن الكاتب أراد بذلك أن ينقل لنا معاناة وآلام كانت متخفية بين السطور الظاهرة التي سطرها تاريخ ثورة التحرير الجزائرية، هذه الآلام التي كانت بمثابة

ثورة أخرى نفسية عاشها كثيرون في تلك الفترة، والتي لم تلتفت لها الأقلام.

لم يمنع ريموند بيشار انتمائها وهويتها الفرنسية من مساندة الشعب الجزائري والنضال إلى جانبه وإعتناق قضيته، وحبها وشغفها بأرض الجزائر والاستشهاد في سبيلها، جاء في أحد مقاطع الرواية: "أما المفاجأة الكبرى فهي التعرف على جثة امرأة بلباسها العسكري، وفي يدها سلاحها بصورة جعلت الجنود الفرنسيين في حالة استغراب شديد ! ما كان مدعاة للاستغراب حقا هو هوية تلك المرأة، لأن الأمر يتعلق في الواقع بالمناضلة الشيوعية ريموند بيشار، التي كانت محل بحث منذ أشهر. بعدما انضمت إلى صفوف ج.ت.و، وهي المتهممة بكونها شريكة فيرنون إيفيتون، المتهم هو الآخر بعملية تفجير فاشلة، استهدفت وحدة الغاز في الحامة بالعاصمة"³⁷، يبدو واضحا هنا كيف أن الكاتب عمل على نسج علاقة مغايرة بين الآخر الفرنسي والجزائر من خلال هذه العلاقة الخاصة التي جمعت بين ريموند بيشار والقضية الوطنية الجزائرية، هذه المرأة الفرنسية التي حاربت الجنود الفرنسيين من أبناء شعبها اللذين نعتتهم بالإرهابيين، وجاهدت جنبا

إلى جنب مع المقاومين الجزائريين وتبنت حياة الأنا الجزائرية إلى آخر نفس لها.

نقل السارد أيضا من خلال شخصية أوجي فرو جدلية الأنا وتخطبها الداخلي إذ كان أوجي فرو (محمد) مواطنا جزائرا كأي جزائري، رافضا للأجنبي الفرنسي وظلمه الذي طالت أياديه على أرضه وأهله وشعبه، لكن من جهة أخرى لم يكن يفوت أية فرصة هو الآخر في إبداء إعجابه وثنائه على هذا الآخر الفرنسي وحضارته، حيث يقول في هذا المقطع: "كيف لا يحب المرء صالونات باريس الموسمية وهي لا تتوقف عن التغيي بلحن المارساياز على شرف رساميها منذ قرونا"³⁸، فيتبين أن الذات الجزائرية أحبت هذا الآخر المختلف عنها من زاوية أنه إنسان، كما أننا نلمس في هذه الرواية رؤية انبهارية للأنا الجزائرية بالآخر الفرنسي من خلال الإشادة بصناعته وهذا ما يوضحه قول أوجي فرو في مقطع سردي آخر أين يصرح بإعجابه وانبهاره بالصناعة الفرنسية بقوله: "يزداد شغفي بفرنسا كلما رأيت عجالات سياراتها الكبيرة تداعب طرقات المدينة الخالية... إنها أفضل ما صنعت فرنسا"³⁹، وجاء في مقطع آخر: "في المقهى

وبين مقاعده البالية، انتشلي النادل من عوالم الشغف وعيونه المرهقة
تراقب مثلي سيارة البيجو من بعيد، يبدو أنه رغم فروقنا الكثيرة،
نتشارك في السبب الوحيد لحبنا فرنسا كلما رأينا سيارات ك
403"40.

وربما كان تخبط العلاقة عند أوجي فرو بين الأنا (الهوية الجزائرية)
والآخر (الأجنبي الفرنسي) نتيجة لعلاقة الحب التي جمعتة بالفتاة
الفرنسية أركاديا بيشار، حبا جعل منه إنسانا آخر ينسى أمامه وضع
بلاده المستعمرة، ويتجرد في حضوره من هويته وانتمائه الجزائري، إذ
يقول في هذا المقطع: "علمتني أركاديا أن أرسم العالم بالريشة وليس
بالكلمات وهي من جعلت للألوان سحرا خاصا"⁴¹.

تتجسد علاقة ومواقف الآخر الفرنسي اتجاه الأنا الجزائرية من
خلال شخصية أركاديا بيشار أيضا، التي كانت علاقتها بأوجي فرو
علاقة جامعة للحب والشغف والتعلق والتضحية والمساندة في آن
واحد، فمثلت أركاديا الآخر الفرنسي الشغوف بالأنا الجزائرية أوجي
فرو حيث جمعت بينهما علاقة حب (المستعمر للمستعمر) هذه
العلاقة التي بدت في ظاهرها متوافقة ومتجانسة على الرغم من

الاختلاف الديني والعقائدي، وفارق السن بين الشخصيتين، لكن كل هذه الفروق لم تمنع أركاديا الفرنسية من الاعتراف بحبها لأوجي ورغبتها الجارحة في البقاء بقربه وسعادتها في ذلك، ويتضح ذلك من خلال قولها: "رفقة أوجي استنتجت أن باقي العمر لم يهمني كثيرا لأن السنوات التي عشتها معه كانت هي العمر بأسره والحب والحياة، لم نتزوج تلك حقيقة كما تراها المجتمعات ولكننا بالمقياس نفسه عشنا كزوجين"⁴²، لكن وبالرغم من مشاعر الحب التي تحملها له إلا أن ذلك لم يكفي لتعترف بكون الجزائر جزائرية ويظهر هذا من خلال قول أوجي فرو: "لم يكن نقاشي معها عن المستعمر والضحية يطول لأنه لا يعني لم أناقش أركاديا في تبريرها لأنه أيضا لا يعني ولكن ما يؤلمني هو إيمانها بما تكرره الصحافة حينذاك إفريقيا فرنسية والجزائر عرش فرنسا الإمبراطوري"⁴³، وفي مقطع سردي آخر نجد أركاديا تقول: "فرنسا والجزائر كيان واحد"⁴⁴، فهي لا تؤمن إلا بحقيقة واحدة وهي أن الجزائر جزء لا يتجزء من فرنسا، وربما هذا ما دفع بها لتغيير اسم حبيبها محمد إلى أوجي فرو، ما يشير إلى أن هذه الشخصية تحديدا أكثر شخصية عانت من اللااستقرار والانفصام الذاتي بين

حين مختلفين حبها لفرنسيته وتعلقها وحبها للجزائر وحبها الجزائري أوجي فرو وجزائريته، رغم العلاقة الهشة التي أسست عليها هذا الحب الذي انتهى إلى التفكك في آخر المطاف، تاركا في كيانها وروحها حرقا كبيرة حين مغادرتها للجزائر بعد الاستقلال، إذ تقول أركاديا على لسانها: "إن مصيري بعد خروج قواتنا من الجزائر كان أكبر من فاجعة غزو هتلر لباريس، لا تضاهيها حتى ساعة توقف قلب أبي وهو في القاطرة الأمامية لقطار باريس، ولا لحظات الرعب التي كانت آخر ثوان عاشتها ريموند... فراق الجزائر كان أقسى علي من فراق الأحبة، أقسى من فراق أبي وريموند"⁴⁵، وتقول في مقطع آخر: "أنا متعبة من هجري للجزائر، هل هناك شيء بعد الفردوس؟ أين الناس الذين عرفتهم"⁴⁶.

خاتمة:

نخلص من خلال ما سبق أن رواية "كافي ريش" عادت لاستحضار التاريخ على لسان إحدى الشخصيات الفرنسية ونقلت من خلالها تعالي الآخر على الأنا الجزائرية، ومحاولته طمس المعالم الهوياتية للشعب الجزائري، كما أظهرت العلاقة الصدامية بين

الاستعمار والمستعمر الذي نتج عنه بذورا سامة خلفت ندوبا مازالت شاهدة على تلك الحقبة، في حين نقلت رواية رعاة أركاديا صورة مغايرة للآخر الفرنسي، بسرد مواقف لشخصيات فرنسية شاركت في تحقيق استقلال الجزائر، كما رسمت صورا متناقضة لعلاقة الأنا بالآخر المتأرجحة بين الخضوع والرفض.

¹ ينظر: فتحي التركي: رهنات الهوية، تر: نور الدين السافي، الدار المتوسطة للنشر، ط1، تونس، 2010، ص 36.

² رسول محمد رسول: محنة الهوية مسارات البناء وتحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات، 2002، ص 17.

³ ينظر: فاطمة الزهراء سالم: نحو هوية ثقافية عربية اسلامية، دار العالم العربي، القاهرة، 2009، ص 72.

⁴ Cf. « Identité », in « Enyclopédia Universalis » Supplément 1980, p763.

⁵ ينظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج2، بيروت، لبنان، ص 569 / 570.

⁶ ينظر: جميل صليبا: المرجع الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص 65.

⁷ الموسوعة الفلسفية، بإشراف م. روزنتال، وب. يادين، تر: سمير كرم، دار الطليعة، ط4، بيروت، 1981.

⁸ جميل صليبا: المرجع الفلسفي، مرجع سابق، ص 131.

⁹ حيدر إبراهيم: على صورة الآخر المختلف فكريا: سوسيولوجية الاختلاف والتعصيب، في الطهر لبيب وآخرون، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 111.

¹⁰ فيلهو هارثي: مفهوم ومواريث "العدو" في ضوء عملية التوحيد والسياسات الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص 55.

¹¹ محمد فتيلينة: كافي ريش، ضمة للنشر والتوزيع، ط2، المسيلة، الجزائر، 2020، ص 27.

¹² المرجع نفسه، ص 77.

¹³ فهد عبد العزيز الطيار، العوامل الاجتماعية المؤدية للعنف لدى الطلاب المرحلة الثانوية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة نايف العربية، الرياض، السعودية، 2005، ص 30.

¹⁴ محمد فتيلينة: كافي ريش، ص 191.

¹⁵ المرجع نفسه، ص 194.

¹⁶ المرجع نفسه، ص 163.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 82.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 31.

¹⁹ المرجع نفسه، ص 94.

- 20 المرجع نفسه، ص 88.
- 21 المرجع نفسه، ص 88.
- 22 المرجع نفسه، ص 89.
- 23 المرجع نفسه، ص 171.
- 24 المرجع نفسه، ص 177.
- 25 المرجع نفسه، ص 142.
- 26 المرجع نفسه، ص 226.
- 27 المرجع نفسه، ص 196.
- 28 المرجع نفسه، ص 207.
- 29 علي بن تيم: السرد والظاهرة الدرامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص 93.
- 30 المرجع نفسه، ص 204.
- 31 المرجع نفسه، ص 45.
- 32 محمد شوقي الزين: الذات والآخر، كتاب مشترك بين دار الضفاف بيروت، ودار الأمان الرباط، ودار الاختلاف الجزائر، ص 9.
- 33 محمد فتيلينة: رعاة أركاديا، ضمة للنشر والتوزيع، ط1، المسيلة، الجزائر، 2021، ص 43.
- 34 سعدي بزيان: جرائم فرنسا في الجزائر، دار هومة للنشر والطباعة، الجزائر، 2009، ص 15.
- 35 محمد فتيلينة: رعاة أركاديا، ص 21.
- 36 المرجع نفسه، ص 23.

-
- 37 المرجع نفسه، ص 21.
- 38 المرجع نفسه، ص 40.
- 39 المرجع نفسه، ص 40.
- 40 المرجع نفسه، ص 136.
- 41 المرجع نفسه، ص 42.
- 42 المرجع نفسه، ص 125.
- 43 المرجع نفسه، ص 93.
- 44 المرجع نفسه، ص 93.
- 45 المرجع نفسه، ص 118.
- 46 المرجع نفسه، ص 125.